مواقف وأحداث

ثورة الشعراء على المحاكم العسكرية



الاثنين 13 يناير 2020 08:05 م

ما أشبه الليلة بالبارحة

بينما يتغنى بعض المنافقين بجرائم الانقلابيين وانتهاكاتهم المتوحشة بحق أبناء الوطن وحرائره الشريفات.. تُخرس الألسنة ويُزج بمن يفتح فمه جهرًا بالحق ورفضًا للظلم..

وفي عهد الديكتاتور الأب جمال عبدالناصر لقيت المحاكم العسكرية الاستثنائية- التي ابتُليت بها مصرُ منذ قيام حركة 23 يوليو، وعانى منها شعبها الأمرَّين من الشعراء الأحرار في مصر والعالم العربي، وأغلبهم من شعراء الاتجاه الإسلامي- استنكارًا شديدًا ونقمةً عارمةً.

ويقابل ذلك ما رأيناه من صمت مريب، وسكوت رهيب عند أكثر شعرائنا الكبار الذين لزم أغلبهم الصمت والتقية، بل وقع بعضهم في منحدر الإشادة والتأييد لتلك المحاكم الظالمة، فكانوا عونًا للطغاة، مشجِّعين لهم على استمراء الظلم والتمادي في الطغيان.

ويأتي شاعرنا المتميز هاشم الرفاعي على رأس من استنكروا تلك المحاكم العسكرية الشاذة، بل هو أول من تعرَّض لهذه المحاكمات في شعره.. ففي قصيدة له بعنوان (جلاد الكنانة) كتبها في مارس 1955م- أي بعد تنفيذ أحكام المحكمة بثلاثة أشهر- يستنكر هاشم الرفاعي تلك السلسلة من المحاكم العسكرية الاستثنائية، التي تُعقد للانتقام من أبناء هذا الشعب على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم.

فمن المجالس العسكرية إلى محكمة الثورة إلى محكمة الغدر، ثم أخيرًا محكمة الشعب، ويسخر من اسم "محكمة الشعب" هذه التي سُميت باسمه، وخُصصت لإذلال أبنائه، ويعرض لأول وصمة في جبين تلك المحاكم، وهي أن القضاةَ فيها هم أنفسهم الخصوم المجني عليهم "ثلاثة ضباط من أعضاء مجلس قيادة الثورة، ليس بينهم أحد قد درس القانون من قبل"، فكيف تكون هناك عدالة حقة:

ما بين محكمة تقام وأختها مُني الضمير بغفوة النعسان

الشعب يلعنها وتقرن باسمه أرأيت كيف تبجح البهتان؟

فيها القضاة هم الخصوم وإنها لعدالةٌ مختلة الميزان

هاشم الرفاعي- ديوان هاشم الرفاعي- قصيدة (جلاد الكنانة)

وفي عاطفة مشبوبة تأثرت بتلك المهازل المقامة، وبأحكامها الهوجاء التي سفكت دم ستة من أطهر رجال مصر والعرب والمسلمين، يتحدث شاعرنا الفلسطيني "عدنان النحوي" تحت عنوان "دماء بريئة" عن هذه المحكمة التي سماها بحق "محاكم التفتيش"، وقد راعه ما فيها من تقييد الأبرار المجاهدين، وتطاول الحَمقى من المدعين والجالسين على كراسي القضاة:

ومحاكم التفتيش مد رواقها كف يسيل على جوانبها الدم؟!

ومهازل فيها تُحاك، فأحمق يهذي، وحر قيدوه وكمَّموا

ودعوةٌ بين بنادق مصفوفة وقنا محدودة وقيل تكلموا

وأخو القضاء أخو هوى وضغينة وجهالة تبدو عليه وترسم

ودعوا إلى حرية وكأنها زند يكبله الحديد ومعصم

يا شعب باسمك كم تباح مظالم والشعب لا يدري ولا هو يحكم

عدنان النحوي- ديوان الأرض المباركة- قصيدة (دماء بريئة)

ثم نصل إلى شاعر ممن اصطلوا بنار المحنة، وقاسوا أهوالها، فكان شاهد عيان، ينطق حقًّا ويصف صدقًا هذا الفصل من المأساة.. فصل المحاكمة، يصفها ويناقش مهازلها:

قالوا محاكمة فقلت رواية أعطوا لمخرجها وِسام فنون

هي شر مهزلة ومأساة معًا قد أضحكتني مثل ما تبكيني

أوعت سجلات القضاء قضية كقضية الإخوان أين؟ أروني؟

الخصم فيها مدعٍ ومحقق وهو الذي يقضي بلا قانون

إلا هواه وما يدور برأسه من خلط سكير ورأي أفين

ويشير شاعرنا إلى حقيقة عجيبة واقعة في تلك المحاكمات، وهي أن رئيسها كان ضابطًا مريضًا بأمراض عصبية، ووصفه من رأوه وتعاملوا معه بأنه كان عصبيًّا متطرفًا في انفعالاته في صورة غير عادية، حتى إن رئيسه الذي عيَّنه على رأس تلك المحكمة كان يسميه "المجنون"

أرأيت محكمةً ترأَّسها امرؤ يدعوه من عرفوه بالمجنون

أرأيت أحرارًا رموا بهمو لدى قاض عديم دينه مأبون

ثم يشير شاعرنا إلى أحد جوانب المأساة، لا يعرفها إلا من عايشها، وهي ما كان يلاقيه من يجرؤ من المتهمين على الإشارة إلى ما وقع عليه من تعذيب أو الإنكار؛ لما أجبروه عليه من الاعترافات:

والويل لامرئ استباح لنفسه إظهار تعذيب ودفع ظنون

سيعود للتعذيب يأخذ حظه وجزاءه الأوفى من "البسيوني"

يوسف القرضاوي- ديوان "نفحات ولفحات"- القصيدة النونية

ويستعيد د. جابر الحاج بعض المشاهد الهزلية والمضحكة المبكية في آن واحد في هذه المحاكمات، أول ما يلفت انتباهه مهزلة الادعاء، حين يعلن في أول جلسة للمحاكمات أن قانون تشكيل المحكمة لا يستلزم وجود محامٍ مع المتهم، ويطالب بنظر القضية دون وجود محامٍ يترافع عن المتهم المسكين، فكل شيء جاهز على حد قوله، وهذا الهزل يعرضه شاعرنا على لسان المدعي:

الادعاء:

هؤلاء الواقفون أمامكم هم شر قوم أجرموا في حقنا

هذا هو التحقيق يثبت جرمهم قد بيَّتوا بالغدر قتل زعيمنا

ويشير الشاعر إلى ما ساد تلك الفترة من محاولة النفخ في صورة رئيس الوزراء، وتلميعه إعلاميًّا، وتكثيف الدعاية له حتى يكتسب تعاطف الشعب، وتحويله إلى زعيم فذٍّ في نظر الجماهير، وهو هنا يلمِّح لما قاله المؤرخون من أن ذلك كان أحد أهداف المسرحية:

كيف استباحوا قتل أعظم قائد بطل أتانا كي يجدد مجدنا

عجز النساء يلدن مثل رئيسنا فأتت بطلعته بشائر نصرنا

لا ترحموهم واجعلوهم عبرةً إعدامهم حق وإنقاذ لنا

قد قرر الجاني بأنه مذنب لم يبق داعٍ للدفاع يهمنا

ليس الدفاع عن الشرار محتمًا فوجوده كغيابه في عرفنا

قد قال بالتفصيل عن شركائه وأدلة الإجرام ثبتت عندنا

د. جابر الحاج- ديوان شطحات ثورة يوليو- قصيدة (المحاكمة)

ويسخر شاعرنا من المدعي، فيورد على لسانه قصة خديوي آدم الهزلية، التي زعموا فيها أن عامل بناء عثر على المسدس المستخدم في الجريمة، وسار على قدميه من الإسكندرية إلى القاهرة ليسلم المسدس إلى الرئيس بنفسه؛ وذلك حتى يبرروا عدم تطابق طلقات الرصاص مع المسدس المضبوط مع المتهم ساعة الحادثة

قد قرر الجاني بأنه مذنب ومضلل قد باء بالخسران

وجدنا ظروفًا للرصاص طريحةً منثورة عدت فكنَّ ثمان

هذا المسدس قد أتانا صاغرًا مستغفرًا تمشي به قدمان

لم لا وكل الشعب رهن إشارة لزعيمنا ورئيسنا المتفاني؟!

ثم يكمل الادعاء مشاهد المرافعة الهزلية، فيطلب إعدام المتهمين عقابًا لهم وردعًا لغيرهم، وهذا كان هدف المحاكمة الأول.. الخلاص من الدعاة الأبرار، وإرهاب بقية الشعب وقهره، وردع من يحاول أن يعارض الباطل أو ينطق بكلمة حق:

جاء اعتراف المجرمين مؤكدًا من غير ضغط فوق أي لسان

ونرى رءوسٌ أينعت وقطافها ردع لمن يعصي بأي مكان

في حكمكم ردع لمن شذوا وتوجيه لكل الشعب بالإذعان

د. جابر الحاج- ديوان شطحات ثورة يوليو- قصيدة (المحاكمة)

ويعود هاشم الرفاعي بعد سنوات- مستغلاً ما حدث بالعراق من أحداث مشابهة- لوصف المحكمة والحكم عليها في أبيات قوية حارة، على لسان أمٍ سفكَ قضاةُ المحكمة دمه، وتروي لوليدها الرضيع فصول المأساة فتقول:

الحر يعرف ما تريد المحكمة وقضاته سلفًا قد ارتشفوا دمه

لا يرتجي دفعًا لبهتان رماه به الطغاة

المجرمون الجالسون على كراسي القضاة

حكموا بما شاءوا وسيق أبوك في أصفاده

كذبوا وقالوا عن بطولته خيانة

وأمامنا التقرير ينطق بالإدانة

هذا الذي قالوه عنه غدا يردَّد عن سواه

ما دمت أبحث عن أبي في البلاد ولا أراه

ترى هل ستظل أمتنا المسلمة مخنوقة بالقوانين الاستثنائية الشاذة، والمحاكم العسكرية الشاذة تخرس الأصوات وتخنق الهمسات، ولا تسمح إلا بترديد آيات النفاق..؟! وهل سيأتي يوم نسمع فيه من شعرائنا الأحرار أبياتًا تتغنى بالحرية، وتصدح بألحان العزة، وتهتف للإنسانية والكرامة.. ما ذلك على الله بعزيز.